مجلة فصلية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات اللغوية والتربوية

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة قسم
الإعلام – دار اللغة والادب العربي
رقم الإيداع في دار الوثائق
العراقية ١٩٦٣ لسنة ٢٠١٤

www.dawat.imamhussain.org
E-mail: daralarabia@imamhussain.org
mob: +9647827236864 — +96447721458001

صورُ التأصيلِ القرآنيّ للرثاء الحسيني
دراسة دلالية
Quranic Images of Rooting the Husseini Lament: a Semantic Study

م.د حيدر عودة كاطع الدراجي
كلية الإمام الكاظم(ع) للدراسات الإسلامية
ميسان

By: Dr.Haider Oda Qadh' Al-Daraji ,
Imam Kadhim (a.s) College for Islamic Studies in Misan

ملخص البحث

يتوخّى البحث اعتماد التأصيل القرآني -بوصفه الأصل الأول والأكبر للتشريع الديني-، وما تضمنته آياته الشريفة من قصص رثاء وحزن وبكاء وندبة، لكي تكون هذه الأحداث والقصص الرثائية بمثابة المسوغ الشرعي والعقلي لما ينقل من قصص الرثاء الحسيني وما تنطوي عليه أحداثها من جوانب وأبعاد ذات افق مأساوي أليم مما قلَّ نظيرها في التاريخ البشري، ومن هنا حاول البحث الخوض في مسألتين متداخلتين: الأولى انطواء بعض القصص القرآني على محفِّز الرثاء العاطفي بكل ما يحمل من الشحن العاطفي النفسي المراد إثارته عند المتلقي كي يعيش السامع الحزن والغصة والألم حين يكون وجهاً لوجه مع حدث القصة القرآنية بتأثيريها العاطفي والعقلي، والأمر الآخر هو الإفادة من التوظيف القرآني في نقل المأساة الحسينية ومراثيها إلى العالم انطلاقاً من المسوغ القرآني، بعد دراسة بعض القصص القرآني والخوص في مداليلها السياقية التركيبية داخل النص القرآني بغية الوصول إلى الوسائل التوظيفية –سياقياً ودلالياً- كعناصر تعبوية لعملية الإثارة العاطفية في المتلقي.

Abstract

The research investigates the images in the Quran that root Husseini lament, which is considered as the first and biggest basis of religious legislation.It focuses on what the Quran contains of noble Ayats that show lament , sorrow and weeping. These events and stories represent a legitimate mental justification to the Husseini lamentation stories and what it conveys of tragically painful events , unprecedented in human history.The present research attempts to explain two overlapping matters.The first is that some Quranic stories stimulate the emotional self-pity and what it contains of emotional and psychological charge to be raised in the recipient, so that he lives in sadness and pain. The second matter is the utilization of Quran in transferring Husseini tragedy and its elegies to the world on the basis of the Quranic justification.

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله الطيبين الطاهرين...وبعد.

يتوخّى البحث اعتماد التأصيل القرآني -بوصفه أصلاً للتشريع الديني- وما تضمنته آياته الشريفة من قصص رثاء وحزن وبكاء وندبة، لكي تكون هذه الأحداث والقصص الرثائية بمثابة المسوغ الشرعي والعقلي لما ينقل من قصص الرثاء الحسيني وما تنطوي عليه أحداثها من جوانب وأبعاد ذات وقع مأساوي أليم مما قلَّ نظيرها في التاريخ البشري، ومن هنا حاول البحث الخوض في مسألتين متداخلتين: الأولى انطواء بعض القصص القرآني على محفِّز الرثاء[1] العاطفي بكل ما يحمل من الشحن العاطفي النفسي المراد إثارته عند المتلقي كي يعيش السامع الحزن والغصة والألم حين يكون وجهاً لوجه مع حدث القصة القرآنية بتأثيريها العاطفي والعقلي، والأمر الآخر هو الإفادة من التوظيف القرآني في نقل المأساة الحسينية ومراثيها إلى العالم انطلاقاً من المسوغ القرآني، بعد دراسة بعض القصص القرآني والخوض في مداليلها السياقية التركيبية داخل النص القرآني بغية الوصول إلى الوسائل التوظيفية –سياقياً ودلالياً- كعناصر تعبوية لعملية الإثارة العاطفية في المتلقي.

فالبحث محاولة لمزاوجة بين الرثاءين القرآني والحسيني لكي تنطلق مراثينا الحسينية التي تلقى على المنابر من منطلق قرآني سواء في الإثارة العاطفية أم في طول أمدها، فيكون لنا مرتكز قرآني تأصيلي يؤسس لهذا الرثاء ويثبته على طول الخط الحسيني منذ شهادة الحسين عليه السلام إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى من الزمان، لا سيما أنَّ الحسين عليه السلام وقضيته انطلقت من القرآن حين ارتدى ثوب الإصلاح ليرأب به صدع الأمة الخانعة، ولذا لم يكن تحرك الحسين عليه السلام نتيجة ردة فعل معينة بل كان خروجه بغية أنْ يخلق في الأمة ردود الفعل المناسبة[٢]، أي كان تحركه بمنهج إصلاحي قرآني، فحري بنا أن يكون رثاؤنا إياه وندبته وبكاؤه من رحم القرآن الكريم.

وهنا أود الإشارة إلى أن مقتضى البحث الكمي والنوعي هو ما أجبرني على الاكتفاء بهذه الصور الثلاث ولا مسوغ آخر وسأحاول أن أدرس الصور القرآنية- بعد الاستقراء التام لها- تفصيلاً في كتاب وذلك في قابل أيامي ما مكّنني ربي لذلك.

الصورة الأولى

قصة هابيل و قابيل

قال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ،لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[٣]

تصور الآية الشريفة حدثاً تاريخياً وقع في غابر الأزمنة بين ابني نبي من أنبياء الله تعالى هو آدم عليه السلام، وينطوي هذا الحدث على جريمة قتل حين أقدم قابيل ابن النبي على قتل أخيه هابيل بعدما وقع تحت تأثير الحسد المميت حين قبلت السماء قربان أخيه دون قربانه، و(القُرْبانُ بالضم:ما قُرِّبَ إلى الله، عزّ وجل وتَقَرَّبْتَ به، تقول منه:قَرَّبْتُ لله قُرْباناً)[٤]، ولذا تمثل القصة بتفاصيلها المثال الجلي والواضح للصراع الدائر في البشرية بين أهل الصلاح والهدى وبين أهل الانحراف والضلال.

اعتمد الخطاب القرآني في هذه القصة التاريخية على إثارة المنبه العاطفي لدى المتلقي بعد توفير أكبر كمية من الشحن العاطفي يتجلى ذلك في سرد تفاصيل القصة من دون الوقوف على حيثية الجريمة فحسب، أي جمعت الآية بين السبب والنتيجة، وهي طريقة لا يراعيها القرآن الكريم كثيراً، لأنه يذكر بعض الأحيان النتيجة النهائية للموت ويذكر أحياناً المعركة وأداة الجريمة[٥]مما يثير مكامن الحزن عند المتلقين وهذا ما تبتغيه الآية الشريفة، هي أن تضع المتلقي في صورة الحدث المأساوي لغرض ربطه بالمبادئ والأهداف التي يرسمها القرآن بوصفه أدباً فريداً من آداب الحوار وهو من أفضل أنواع الأدب القرآني[٦]، مع الإشارة إلى إنّ القصة بجانبها النوعي تركز على المحفز الكمي لدى سامعيها، أقول:سامعيها لأنّ الآية توخت التركيز في نشر أبعاد الجريمة من خلال النغم الصوتي كوسيلة للتعبير المسموع، أي معتمدة على الآية المقروءة، ولذا قالت:(وَاتْلُ) ، والتلاوة تعني القراءة لا الكتابة، ولذا يقول الخليل(ت١٧٥هـ):(تلا فلان القرآن يتلو تلاوة)[٧]، وذهب الفيروزآبادي(ت٨١٧هـ) المذهب نفسه بقوله:(القرآنَ أو كلَّ كلامٍ تِلاوَةً، كَكِتَابةٍ :قَرَأْتُهُ)[٨]، فأصبح عامل التأثير العاطفي المتوخّى من الآية يركز الآية بوصفها منطوقة مسموعة لا مكتوبة مقروءة.

أما المحفز الكمي لآية القصة فيمكن فهمه بعد استنطاق الضمير المتصل الذي جاء في محل جر بحرف الجر وهو الضمير(هم) المجرور بحرف الجر(على)في قوله تعالى:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ)، فضمير الهاء المجرور لا يتضمن

طائفة بعينها ولا ملة بذاتها بل هو ضمير يدل على العاقل، ودلالة العاقل فيه ليست حكراً على المسلمين فحسب وليست خاصة بزمان دون آخر لأن عالمية القرآن تقتضي أن يكون الحدث القصصي صادحاً ومسمعاً كل من يأتي من العاقلين ما دامت الحياة، وبما أنَّ النص القرآني مطلقاً فلا تقييد في المقام لأن التقييد يحتاج إلى مؤونة زائدة على الأصل السياقي وهو ما يعرف بالدليل أو القرينة السياقية الصارفة كي تعمل على صرف اللفظ من الإطلاق إلى التقييد، ولمّا جاء النص خاليا من التقييد فيبقى الإطلاق على إطلاقه في إرادة عموم العاقلين لا فئة بعينها وهذا هو مراد الأصوليين في المطلب[٩].

وذكرت الآية الشريفة أن هذه القصة هي من القصص الحق من خلال إيرادها الجار والمجرور (بالحق)، إذ أن شبه الجملة جيء به لرفع الشبهات عن الحدث التاريخي وما أضيف إليه من خرافات وبدع كي يضع القرآن بين يدي المتلقي القصة الحقيقية بلا شوب أو لبس، وقد ذهب الزمخشري(ت٥٣٨هـ) إلى بيان متعلق الجار والمجرور مذاهب أربعة:

١- الجار والمجرور متعلق بالتلاوة أي أن القصة التي ستتلوها عليهم متلبسة بالحق والصحة.

٢- إنه متعلق بالنبأ الذي تضمنته القصة وهو نبأ منطوٍ على الصدق وموافق لما جاء في كتب الأولين.

٣- متعلق بالغرض الصحيح الذي كان علّة لهذه الجريمة وهو تقبيح الحسد ذلك لأن المشركين كانوا يحسدون النبي الأكرم

٤- متعلق بالفاعل المستتر وجوباً في فعل الأمر (اتلُ) أي هو متعلق بالنبي الأكرم بوصفه المخاطب فيه فيكون التقدير (اتلُ عليهم وأنت محق صادق)[١٠]،

وتأتي الوظيفة الصوتية من خلال الأصوات اللغوية التي اعتمدها النص الكريم كونها عملية استثمار سياقية تسهم في رفد أجواء الحدث والتي يعبر عنها ابن جني(ت٣٩٢هـ) أنها(أصوات الحروف التي تأتي على سمت الأحداث المعبر عنها)[١١] كي تخلق الجو المنسجم مع حدث القصة الرثائي المشوب بأول جريمة في التاريخ البشري، ليدل صوت القاف على طبيعة الانسجام الصوتي بين السياق والحدث كي يرسم صورة القتل المهولة، لأن السياق يستمد دلالته من القوة التي تأتي عليها المفردات الصوتية لتأدية المعاني المتوخاة [١٢]، فقد استعمل صوت القاف عشر مرات في الآية الأولى وذلك في الكلمات الآتية على التوالي:بالحق، قرّبا، قرباناً، فتُقُبِّل، يُتقبَّل،قال ،لأقتلنّك، قال،يتقبّل، المتقين، ويتميز صوت القاف كما يرى سيبويه(ت١٨٠هـ):بأنه صوت مجهور شديد يمتنع الصوت فيه أن يجري[١٣]، وأن مخرجه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى[١٤]، ولذلك يسمى في الدرس اللغوي الحديث بالصوت الانفجاري[١٥] لأن خروجه من المجرى الصوتي يتم بعد أن يتصل اللسان بأدنى الحلق بما فيها اللهاة مما يجعله يخرج فجأة فيؤدي بخروجه صوتاً انفجارياً شديداً، ولعل هذه الطبيعة المخرجية لصوت القاف مما تنسجم صوتياً مع طبيعة الحدث القرآني، وقد أفاد صوت القاف من صوت اللام الذي شاركه في التزاوج الصوتي المكرر لمرونته وسهولته في عملية النطق كونه صوتاً -وإن كان مجهوراً كما يراه سيبويه - ليس من الأصوات الشديدة التي يحتبس بها الصوت حال الخروج غير أنه صوت منحرف لأن اللسان ينحرف فيه مع النطق[١٦]، فانفجارية صوت القاف متعكّزاً على مرونة صوت اللام أسهمت في رسم اللوحة الرثائية للقصة القرآنية ، لا سيما في الآية الأولى لأنها اشتملت على القرار النهائي الذي عزم قابيل على فعله وهو القتل الذي لا بد منه،

فصوت القاف وتكراره في الآية الأولى يوحي للسامع كيف حيكت خيوط الجريمة الأولى في تاريخ البشرية، وهذا الأسلوب القرآني الفريد في توظيفه كافة المعطيات اللازمة لرسم اللوحة الفنية بجوّها الرثائي كي تقع في طريق التأثير المنشود، كون المقام الحالي للقصة يعتمد البلاغة الصوتية كواحد من مرتكزات التأثير العاطفي لدى المتلقي.

وهنا أودُّ أنْ أشير إلى حال القاتل والمقتول وكيف تعاطيا مع الموقف المصيري، فلم يكن لهابيل علاقة خاصة ذاتية في قبول القربان وعدم قبوله لأنَّ النّار السماوية هي ما اختار قربانه بأمر من بارئها، ولذا فهو لم يرسم حتفه بيده بل أراد أنْ يحيا، بيد أنه كان ضحية حبِّ الله تعالى له فهو يمثل البراءة المحضة الصادقة، في حين أن أخاه لم يجد له تفسيراً غير الفتك بأخيه، ولذا كان ردُّ قابيل على موقف القربان هو قوله:(لأقتلنَّك) وهو موقف محتوم توفرت أسبابه الشيطانية في رأسه بدلالة تضمين الفعل المضارع الواحد توكيدين، توكيد اللام المشعرة بالقسم ونون التوكيد الثقيلة، كي يعبر الفعل المضارع المشبع بالتوكيد -بضميمة الانسجام الصوتي -على أن لا مناص من القتل، فالآية واضحة معالمها حين صوَّرت سرعة اتّخاذ القرار الجريء، وأنَّ هذا القرار هو القتل لا غير، مما يكشف أنَّ الحسد قد استولى على قلبه الحقود فلم يمنّيه بالفرصة الكافية للحل البديل، أما رد هابيل البريء فكان ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ليكشف عن براءته الصادقة حيال قبول القربان، فيقول له: إن التقوى هي معيار ذلك القبول الإلهي ولستُ أنا، فعلّة القتل هي القبول وليس هابيل، مع أن هابيل كان أقوى وأشجع من قابيل لكنه تحرج واستسلم مخافة من الله تعالى[١٧].

ويستمر حديث الأخ البريء ليعبر عن خصاله الطاهرة الخالية من أمراض النفس الذميمة، وهي أنه لا يقدم على قتل أخيه حتى لو أقدم أخوه قابيل على ذلك لأن خوف الله تعالى يمنعه كما يصورها القرآن في قوله: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وهنا دلالات ثلاث أود الوقوف عندها:

١- جاء فعل الشرط في الجملة الشرطية فعلاً ماضياً هو الفعل(بسطتَ) في حين أنَّ جواب الشرط جاء صفةً اشتقاقيةً هي اسم الفاعل(باسط)، وذلك (ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع، ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي)[١٨]، خاصة أنَّ اسم الفاعل من الصفات التي تدل على الدوام والثبوت، على خلاف الأفعال التي تدل على الحدوث والتجدد والتغير بتغير الأزمان والأحوال، أي أنّ اسم الفاعل صفة لا تنفكُّ عن موصوفها، ولذلك يسميّه الكوفيون بالفعل الدائم[١٩]، أي تدل على ثبوت معناها من صاحبها ثبوتاً دالاً على الدوام، وقد دعا هابيل إلى العدول من الفعل إلى الاسم كونه لم يرد أنْ يكون القتل متصلاً به وواقعاً منه بل أنَّ القتل واقع من قابيل لا غير[٢٠].

٢-وقع تقديم وتأخير سياقي مقصود بين شبه الجملة(إليك) وكلمة(يد)، ففي جملة فعل الشرط قدّم الجار والمجرور على اليد حين قال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾، بينما قال في جواب الشرط: ﴿مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾، مع أنَّ (يد) في السياقين وقعت معمولةً كونها مفعولاً به في كلا السياقين، للفعل الماضي في الجملة الأولى، ولاسم الفاعل في الجملة الثانية، لكنها فُصلت عن عاملها في الأولى بالجار والمجرور، وضامّت عاملها في الثانية، كي تدل على أنَّ هابيل كان سخياً وعطوفاً على أخيه القاتل حتى في طريقة الخطاب والمحاورة بينهما، فلأنه رأى أخاه حريصاً وممعناً وعازماً على الاعتداء عليه، لذا قدم كلمة(إلي) وأخّر آلة البطش وهي

اليد، ولمّا كان هابيل غير حريص ولا عازما على الفتك بأخيه أو الاعتداء عليه نافياً ذلك عن نفسه، لذلك قدم آلة الاعتداء وهي اليد على شبه الجملة[٢١].

٣- ورد اسم الفاعل (باسط) عاملاً في السياق القرآني بعدما توفّر شرطا عمله، وهما مجيئه معتمداً على نفي أو استفهام أو يأتي خبراً أو صفةً أو حالاً أو منادى، أي أن عمله يعتمد الدلالة النحوية السياقية لا الصرفية الوضعية بعدما يضامّ الكلمات الأخرى، وهنا جاء اسم الفاعل خبراً لـ(ما) الحجازية النافية العاملة عمل الفعل (ليس)، أي توفّر واحد من شرطي عمله، لاسيّما أنَّ خبر (ما) الحجازية جاء مجروراً بحرف الباء الزائد وهذا النوع من الجر يختص بالدخول على خبر الفعل (ليس) وأخواته، يضاف إلى هذا أنَّ من لوازم عمل اسم الفاعل دلالته على الزمن الحالي والاستقبالي وإلّا فلا يكون عاملاً على رأي البصريين[٢٢]، وهنا يتأكد أنَّ هابيل كان يريد نفي صفة القتل عنه تجاه أخيه القاتل على كل حال وفي زمني الحال والاستقبال لأن صفتي البراءة والكرم اللتين يتحلى بهما ليستا صنيعة الظرف الحالي، وهذا النفي ليس نوعاً من الخضوع والتذلل لدفع القتل عنه، لأنه صار مقتنعاً أنّ أخاه لا يحيد عن عزمه، لذلك أراد أن ينفي عن نفسه مد يده لأخيه كونه يحمل في قلبه الخوف من الله تعالى، ذلك الخوف الدائم بدوام الحياة لشخص هابيل، ولذا هذا المعنى مما يتناسب-قطعاً- مع استعمال اسم الفاعل الدال على الثبوت والدوام.

ولعل من المناسب لهذا المعنى أنَّ جواب الشرط ﴿ مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ ﴾ جاء خالياً من فاء الجزاء ليدل على معنى الدوام التي يتحلى بها هابيل في كونه لا يتصف بصفة بسط اليد لقتل أخيه، حين يوحي للسامع أن جواب الشرط ليس معلولاً لفعل قابيل في قتله إياه فحسب بل هو صفة لا تنفك عنه، أي أن الآية اشتملت على حذف فاء الجزاء[٢٣].

بدا واضحاً بعد مناقشة البعد الدلالي للآيتين الشريفتين أن الرثاء من مبتنيات الثقافة القرآنية فهي ليست مباحة كما يتضح بل هي مطلوبة لأن القرآن الكريم يرى أن الرثاء إنما هو سنة كونية إلهية ، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[٢٤] ، حيث يُفهم من الآية الشريفة أن عدم بكاء السماء على شخص معين هو توهين وتحقير له، بدليل أن الآية جاءت في سياق الحديث عن هلاك فرعون وجنوده وما آلت إليه أحوالهم بعد غرقهم، فلم تكترث السماء لمهلكهم، في حين أن الطبري(ت٣١٠هـ) في تفسيره للآية الشريفة نفسها يقول:إن السماء بكت على الحسين عليه السلام وبكاؤها هي حمرتها[٢٥]، وأن ابن عساكر(ت٥٧١هـ) ذكر أن السماء بكت دماً على الحسين واستمر المطر الأحمر سبعة أيام ينزل على البيوت والجدر[٢٦]، وأن السماء اسودت بعد مقتله وظهرت الكواكب نهاراً حتى شوهدت الجوزاء عند العصر، وصارت السماء سبعة أيام بلياليها كأنها العلقة، وما رفع حجر إلاّ ووجد تحته دم أحمر[٢٧] ، فوجود الرثاء في الجو القرآني أسلوب يهدف إلى التضامن مع المظلوم والتنديد بالظلم والظالمين[٢٨]، ولا علاقة له من قريب أو بعيد بالشحن الطائفي البغيض، لأن التأصيل القرآني للمراثي الحسينية والتأكيد عليها بوصفها من شعائر الله تعالى يضع المبرر العقلي لتشريعيها بل والحث عليه لأن بكاء السماء على الحسين عبارة عن حدث تكويني يستبطن دعوة عالمية للبكاء عليه ورثاءه ولعن قاتليه، خاصة أن جريمة قتل الحسين أشنع بكثير من جريمة قتل هابيل التي ذكرتها الآية الشريفة، مع كون كل من الحسين وهابيل من أولاد الأنبياء.

فنحن مدعوون –إذاً-أن نتلو الظلامة على السامعين مهما كانوا وأينما كانوا، مع اعتماد الأساليب التي تفضي

إلى استدرار عواطف السامعين بتوفير الشحن العاطفي عند الخطاب، كما هو حال القرآن الكريم في قصصه.

وإليك هذه الصورة الرثائية الحسينية البريئة التي تنسجم مع قصة هابيل الحزينة يجسدها قول الإمام الحسين عليه السلام التاريخي مخاطباً قاتليه:يا ويلكم أتقتلونني على سُنة بدلتها؟ أم على شريعة غيرتها؟ أم على جرم فعلته؟ أم على حق تركته؟. فقالوا له: إنا نقتلك بغضاً لأبيك[٢٩].

وهي براءة صادقة طاهرة سجلها الحسين عليه السلام في كربلاء حين خاطبهم بهذا الخطاب الصادق يكشف فيها بأنه مقتول لا محالة حين ابتدأ كلامه بتعنيفهم وتقريعهم معقباً بالفعل المضارع الدال على حتمية القتل بقوله(أتقتلونني) وفيه دلالة التصميم الواضح منهم على قتله لذلك لم يسألهم عليه السلام إن كانوا سيقتلونه أم لا بعدما رآهم قد أحكموا عليه الخناق فلم يتركوا له منفذاً غير قتله ومن معه، ولكنه صار يسأل عن سبب قتله، بعدما آمن أنه مقتول لا محالة شأنه شأن البراءة التي انطوى عليها صدر هابيل حين آمن بمقتله غير عالم بالسبب، ومن هنا صار الحسين يستنطقهم عن سبب قتله، ليشعرهم بصدق نيته المسالمة وأنه ليس نداً أو خصماً لهم، فجاء جوابهم الجازم بما هم عازمون عليه بأننا (نقتلك) بغضاً لأبيك، أي أن القرار اتخذ وانتهى الأمر كقرار قابيل في قوله (لأقتلنّك)، ولكنّ قتله عليه السلام ليس للأسباب الأربعة التي ذكرها لهم أي المتعلقة بشخص الحسين عليه السلام بل هم قاتلوه لجريرة بغضهم لأبيه لا لجريرة أبيه، ويبدو أنّ البغض لعلي عليه السلام لم يكن منشأه علي عليه السلام نفسه بل منشؤه المبغضون له بدلالة قولهم نقتلك بغضاً لأبيك، فليس لعلي عليه السلام جريرة تقتضي البغض سوى البغض نفسه وإلاّ لذكروها، أي هم يكشفون عن قلوبهم الحاقدة بقولهم هذا فبغضهم لعلي عليه السلام هي الضريبة التي يدفعها الحسين من نحره الشريف.

وللحظة تأمل في قول هابيل : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ ﴾، نجدها تؤصل لمنع الحسين عليه السلام مسلم بن عوسجة حين رام أن يرمي شمراً، مخاطباً إياه بقوله:لا ترمه فإني أكره أن أبدأهم بقتال[٣٠]، فلأنه عليه السلام ذو منهج إصلاحي فهو يكره أن يبدأ قتالاً لأنه لم يأت من أجله بل من أجل الإصلاح، بدليل أنه يكره أن يبدأ بمطلق القتال مهما تنوعت أبعاده ومشاربه يستدل على هذا الإطلاق تنكيره للفظ القتال ليكشف عن الإطلاق من خلال التنكير، مما ينسجم تماماً مع قول هابيل: ﴿ مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ ﴾.

الصورة الثانية

حزن يعقوب عليه السلام

تتمحور قصة نبي الله يوسف عليه السلام في إطار القصص التامة السرد لاشتمالها على تفاصيل الأحداث المنطوية عليها القصة تاريخياً فلم تقف عند مأساوية الرثاء القصصي كجوٍّ قرآني خاص، بل راحت تسرد حيثيات ومجريات ما آلت إليه حياة يوسف النبي بعدما كاد أن يذهب ضحية الحسد البغيض على يد إخوته لأبيه، وهو ما سأحاول توظيفه فقط مكتفياً به من دون الخوض في بقية مجريات القصة لما سيفي غرضاً كمعطى توظيفي للرثاء الحسيني فيما بعد، حين يتجلى فيها الصراع الدائر بين الحقد والبراءة كي يكون درساً للأجيال لفهمه واحتذائه، وهذا ما أرادت القصة أن تؤسس له بعدما ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾[٣١]، وأي درسٍ أكثر تأثيراً وعبرةً من أن يجتمع مجموعة من الأفراد لإهلاك أخيهم الضعيف البريء بدافع الحسد، لا لشيء سوى حب أبيه له، فليس له دخل في ذلك الحب، لكن الحسد أعمى بصر

أخوته وبصيرتهم، بيد أن الضحية الحقيقة لهذا الصراع لم تكن داخلة فيه إنّما هو الأب الشيخ الكبير العاشق لولده المغيّب عنه قسراً، فغيّب أبناؤه عنه حبيبه الصغير ليكون الأب ضحية هذا الغياب المرير، فيأتي القرآن الكريم ليصفه بأسلوب رثائي حزين بقوله: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٣٢].

إذ يتلخّص مغزى الآيات السابقة أنَّ ألماً جديداً مني به نبي الله يعقوب عليه السلام حين غُيِّب عنه الابن الآخر (بنيامين) وصار بعيداً بعدما أُخذ بجريرة وتهمة دبّرها أخوه يوسف عليه السلام له ليستبقيه عنده، وما صاحب هذا الاستبقاء هو قرار أحد أبنائه -الذي هو الابن الأكبر- أنْ لا يعود إلى الديار حتى يأذن له أبوه، لأنه كان يشعر بالندم حيال أخذ بنيامين بعدما آتوا أباهم موثقاً وعهداً على أن يرجعوا أخاهم الأصغر معهم، ومن هنا صار هذا الحدث جرحاً جديداً يضاف إلى مصابه بفراق يوسف عليه السلام، لا سيما أنَّ بنيامين كان الأخ الشقيق ليوسف عليه السلام من أمه وأبيه وكان نبي الله يعقوب عليه السلام يجد فيه السلوى والعزاء عن أخيه يوسف عليه السلام، ولذلك لما وصله خبر استبقاء بنيامين لدى عزيز مصر، من قبل أخوته العائدين قرر أنْ يتولّى عنهم، أي يتركهم ويهجرهم، يُستدل على هجرانه إياهم أن الفعل (تولّى)- كما يقول الراغب الأصفهاني(ت٥٠٢هـ)-(إذا عُدِّيَ بنفسه اقتضى معنى الوَلَايَةِ، وحصوله في أقرب المواضع منه يقال:وَلَّيْتُ سمعي كذا...وإذا عُدِّيَ بعن لفظاً أو تقديراً، اقتضى معنى الإعراض وترك قربه)[٣٣]، فتولى عنهم تركهم وهجرهم بعدما فتق هذا الحدث الجديد جرحه القديم بفقده لولده الذي غيبه أخوته العشرة، فهم وإن كانوا أولاده لكن جريرتهم صيّرتهم عنده ظالمين.

ومن هنا يمكن أنْ يعطي هذا الموقف القيمة المثلى -فيما بعد- كي لا يُداهن من يتسبب في ظلم الآخرين مهما كانت مكانته الاجتماعية أو قرابته أو منزلته ففاعل الظلم ظالم ويجب التنديد بفعله المشين وإن كان يحكم المسلمين كيزيد بن معاوية، لأن القرآن أمرنا أن نهجر ونشنّع أفعال الظالمين حتى لو كانوا من أبناء الأنبياء، بدلالة الموقف الذي اتّخذه نبي الله يعقوب عليه السلام إزاء ظلم أولاده لأخيهم حين تولّى عنهم، وقصة يعقوب عليه السلام من الدروس التي أمرنا القرآن الكريم أن نحتذيها ونسير في تعقل معانيها وتفهّمها ذلك أنَّه لم يأت بها جزافاً.

وهنا زاد النبي على هجرهم أنْ استذكر ولده يوسف بقوله: ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾، كاشفاً عن وجده الشديد بهذا النظم السياقي الممتلئ حزناً وحسرة، فقد ضامَّ تركيباً بين مفردتين تحملان النغم الصوتي نفسه وهما:(الأسف، يوسف)، مجانساً بينهما مقترباً بهما إلى الجناس البلاغي لكنّهما اختلفا معنى وكتابة لذا لا يدخلان تحت عنوان الجناس-وإن تقارب مخرجهما الصوتي- بل يدخلان تحت ما يسميه الزركشي (ت٧٩٤هـ) بالاقتضاب، وهو كون الكلمتين لهما أصل واحد في اللغة[٣٤]، لأن مفردتي (الأسف ويوسف) تنتميان إلى جذر أو مادة اشتقاقية واحدة هي مادة(أسف)، الدالة معجمياً على شدة المبالغة في الحزن والأسى[٣٥]، المعتمل في صدر نبي الله عليه السلام، فالمجانسة حاصلة في المقام لكنها من نوع الاشتقاقية[٣٦].

ولشدة وجده وحزنه أضاف الأسف إلى نفسه بعدما ألحق الكلمة بياء المتكلم، لكن السياق القرآني حذف الياء مبدلاً إياها ألفاً مفتوحا ما قبلها، حيث أجاز النحاة هذا الحذف في النداء، ومن هنا يقول المبرد (ت٢٨٥ هـ):(كُلُّ

مضاف إلى يائك في النداءِ يجوز فيه قلْبُ هذه الياء ألفاً لأنَّه لا لبْسَ فيه وهو أخفُّ، وباب النداءِ باب تغيير)[٣٧].

ولعل اللافت للنظر هو كون الآية ذكرت أنَّ يعقوب النبيعليه السلام تأسّف وتحرّق وتألّم على يوسفعليه السلام مع أنَّ الحدث كان متعلقاً ببنيامين وأخيه الآخر لا بيوسفعليه السلام، فكان الأولى به أنْ يتأسف ويتألم على فراقهما لأنهما فُقدا للتو لا على يوسفعليه السلام الذي مرَّ على غيابه زمن طويل، والحق أنَّ نبي الله يعقوبعليه السلام أراد أنْ يشعر السامع أنَّ نار حزنه ووجده التي اكتوى بها قديماً على غياب يوسفعليه السلام قد أشعلت في صدره مجدداً، مع ألم الفراق الجديد، لأنه نكأ القرح القديم الذي لمّا يندمل، أو أنه أراد أن يفهمهم أن رزية يوسفعليه السلام هي أم الرزايا وأصلها، فكل رزية ما هي إلا دونها في المصاب بوصفها فرعاً من تلكم الرزية العظيمة[٣٨].

وهذا المستوى من التوجيه الدلالي لرزية يعقوب بيوسفعليه السلام بوصفه توظيفاً في الإطار التأصيلي للحزن والبكاء يعطي البعد التشريعي والتكويني لمشروعية البكاء بوصفه واحداً من آليات التعبير عن الحزن المعتمل في الصدور على سيد الشهداءعليه السلام، بل أكثر من ذلك حيث تحاول هذا القصة أنْ تركِّز استمرارية الحزن والبكاء على الحسينعليه السلام حين صار حزن يعقوب على يوسفعليه السلام لا يؤمن بالزمن ولا بمقتضى الحال ولا بأي داعٍ آخر، فالقصة ندبة –إذاً- للأجيال اللاحقة كي تستثمر معطياتها في الاتجاه الحسيني ما دامت الحياة، لا سيما أنَّنا مندوبون إلى تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وهذا يعني أنَّ المسوِّغ الشرعي للبكاء والحزن والجزع على الحسينعليه السلام ليس له حد زمني ولا انقطاع، فهو دائم بدوام التلاوة القرآنية لهذه القصص الرثائية.

وفوق كل ذلك يمكن استثمار وتوظيف مصيبة الحسين عليه السلام بكل ما تحمل من حرارة حزن كي تكون الأصل المهيمن على كل مصائب أهل البيت، فكل فاجعة تمرُّ عليهم تعيد في الأذهان كربلاء وما جرى على الحسين وآل الحسينعليهم السلام وصحبه فيها تمشياً مع المعطى القرآني الذي جعل مصيبة فقد يوسفعليه السلام عن يعقوبعليه السلام هي أم الأرزاء إذ ينفتح باب حزنها عند كل رزية، فكلُّ رزية تمرُّ على يعقوبعليه السلام إلا وهي دونها في الحزن، ولهذا أثرت فيه التأثير الذي أذهب بصره تفجعاً وحزناً وبكاءً على غائبه، ووصلت حاله إلى ما وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أي ذهب سواد عينيه، وهي كناية عن العمى الذي أصاب عينيه نتيجة ذلك الحزن، إذ أن دلالة حرف الجر(من) في النص هي دلالة بيان العلة التي عميت بها عيناه، فـ(من) الجارة –إذاً- أفادت معنى التعليل هنا، وهو من المعاني التي قد يخرج إليها هذا الحرف أحياناً، ليوضِّح مع مجروره الداخل عليه علّة بياض عينيه وأن هذه العلة هو الحزن، إلّا أنَّ الحزن لا يكون العلّة الحقيقية لذهاب بصر الحزين لأنَّ الحزن حالة نفسية يمر بها الإنسان لا تكون إلا سبباً لغمه وبكائه لما يثيره في الصدر من لواعج وشجون واكتئاب، ولمّا كان البكاء هو ما يكون علّة مباشرة لنزول الدموع من العينين ومن ثم إلى بياضهما مع كثرة البكاء فيكون الحزن –والحال هذه- علّة العلة لبياض العينين وليس العلة المباشرة لبياض العينين، ولكن القرآن الكريم تجاوز هذا التسلسل العللي في الحدث من خلال الاعتماد على طبيعة النفس البشرية إزاء حالة الحزن وما تؤول إليه من بكاء يفضيه ذلك الحزن، لأن النتيجة واحدة في نهاية الأمر.

ومع ما كان يذرفه النبي يعقوبعليه السلام من دموع على ما جرى عليه لكنَّه كان(كظيما) يحبس حزنه ولواعجه وأحزانه في صدره فلا يبثها إلا بواسطة الدموع المالحة، لتعبِّر الصفة عن ثبات في موقفه الحزين تجاه الآخرين

كونه لا يُظهر حزنه لغيره إلا بدموع عينيه، لأنه كظيم، وهذه الصفة من حيث الصيغة الصرفية تحمل مدلولاً سياقياً نحوياً، هي صفة الثبوت والدوام وأنها لا تنفك عن يعقوب، ولذا ذهب فيها المفسرون إلى أنها صيغة (فعيل) لكنها تحمل دلالة اسم الفاعل، أي هم كظيم بمعنى كاظم، أو أنّها تحمل دلالة اسم المفعول فتأتي بمعنى مكظوم[٣٩]، إذ لا يمكن أنْ تحمل الصيغة دلالة الصفة المشبهة -كما يُستشم منها- لأنَ الصفة المشبهة تشتق من الفعل اللازم لا المتعدي والحال أنَّ الفعل (كَظَمَ) من الأفعال المتعدية، وأمّا الفرق بين الدلالتين هو فرق بين الفاعلية والمفعولية، فلو كانت الصيغة تدل وتحمل معنى اسم الفاعل(كاظم) فهذا يعني أنَّ كظمه لحزنه كان بقصدٍ منه واختيار لصدور الكظم منه شخصياً، فهو كاظم على حزنه لنفسه فلا يظهره لغيره، وهذا المعنى مما يناسب حال النبي يعقوب لنبوته، وأما إذا كان المعنى بدلالة اسم المفعول فهو يدل على أن صدره ممتلئ بالحزن والهم بل والحنق على أولاده بعدما تذكر فعلتهم بأخيهم الأصغر يوسف.

ويحاول بعض أهل بيته ممن قبل مجالستهم أن يُظهر شيئاً من العطف والرفق بحال يعقوب مصحوباً بشيء من الندامة على حاله الحزينة، فيصور القرآن الكريم حال رفقهم بأبيهم بقوله: ﴿قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، وقولهم:(تفتأ) أي (لا تفتأ) يريدون أنَّك لا تنسى ولا تزال تذكر يوسف، حيث أنَّ الفعل (تفتأ) من الأفعال الناقصة المصاحب للنفي دائماً ومما يعمل –نحوياً- عمل الفعل (كان)، لكنه يكثر فيه التخلّي عن نفيه حين يقع جواباً للقسم[٤٠] ويأتي مثبتاً دالاً على معنى النفي، لأن دلالته تتغيَّر حين يقع مثبتاً فلذلك يأتي في جواب القسم مثبتاً على نية النفي كما هو الحال في الآية الشريفة، ويتجلّى معه دور الأداء الصوتي للتمتمة التائية الكاشفة عن استعطافهم واسترحامهم للشيخ الكبير الذي أنهكه فرط البكاء، ذلك الاستعطاف المحفوف بالندم على ما جرى عليه يتبين بواسطة التكرار الصوتي لحرف التاء ذي المخرج اللساني الأسناني[٤١]، فمخرجه قريب من الشفة ليصور حال الحزين المكظوم [٤٢]، وهذا التناغم الصوتي بين اللفظين يُعرف عند أرباب البلاغة بـ(ائتلاف اللفظ مع اللفظ) وهو كون ألفاظ العبارة على وتيرة واحدة من الغرابة والتأمل، إذ أنه (لَمّا أتى بالتاء التي هي أغربُ حروف القسم، أتى بـ﴿تَفْتَأُ﴾ التي هي أغربُ أفعال الاستمرار)[٤٣]، فتكرار صوت التاء في هذا التركيب تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ تكرارا ملحوظا مشعرا بوجل وخوف على حال أبيهم، بدلالة قولهم:﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾، إذ يخشون عليه أن يكون حرضاً أي مشارفاً على الموت بسب البكاء، أو تكون نهايته الهلاك وهذا ما لا يتوخونه لأبيهم الحزين، لكنه خاطبهم -بغير اكتراث لعطفهم عليه- بقوله:﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، موضحاً لهم أن الذي يعتلج في صدره ليس حزناً فحسب بل هو همٌّ لا يطيقه سواه، ولذا عبر عنه بالبث، ومن هنا صار غياب يوسف المتطاول عنه شريكاً بين صدره الكظيم وعينيه الدامعتين ولسانه الشاكي إلى الله تعالى.

ولعل حالة العمى التي آلت إليها حال نبي الله يعقوب وخشية ذويه عليه من الهلاك تعد مسوغاً شرعياً -بتأصيل قرآني- لأجل إطالة أمد الحزن والبكاء على الحسين، ولا مانع – كما يبدو من القصة- في إذهاب البصر بكاءً وحسرة وتفجعاً عليه، خاصةً أنَّ بصر يعقوب ذهب على ولده الحي الذي لم يمت ولم يذبح مع أهل بيته وصحبه، وعلى هذا يكون الحزن على الحسين بالأولوية القطعية لأن فاجعته ليس لها نظير

في التاريخ البشري، فالبكاء على الحسين عليه السلام قضية جوهرية نابعة من صميم الإسلام وهو من مصاديق قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [٤٤][٤٥]، لاسيما إذا استمعنا إلى كلام ولده الإمام زين العابدين عليه السلام حين عوتب -من أحد أصحابه- على طول الحزن والبكاء على أبيه ، فأجابه الإمام بقوله:(ويحك إنَّ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام كان نبياً ابن نبي كان له اثنا عشر ابناً فغيَّب الله سبحانه واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن، واحدودب ظهره من الغم، وذهب بصره من البكاء وابنه حي في دار الدنيا، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين، فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي)[٤٦]، فقد وظَّف الإمام الأصل القرآني المتضمن قصة يعقوب عليه السلام ليعطي للسائل الدليل القرآني على أصل هذا البكاء في الحسين عليه السلام، فتجد أنه أفاد من القصة القرآنية لكي يعطي البعد التشريعي غير المانع من طول فترة الحزن والبكاء على الحسين عليه السلام وإدامتهما، لأن وجود القصة في القرآن الكريم يعني أنها مطلوب انتهاجها والإقتداء بها وتوظيفها لما يناسبها على طول الخط البشري، ومن هنا اعتمدها الإمام عليه السلام في مقام الرد على معاتبيه في كثرة بكائه، وجعلها وثيقة تشريع لحزنه المتطاول، وقد أفاد أحياناً حتى من الكلمات التي تضمّنتها آيات القصة كي يقتبس منها النصوص التي تناسب حزنه على أبيه، فقد خاطبه مولى له مشفقاً عليه بقوله:(جعلت فداك يا بن رسول الله، إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين. ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة)[٤٧]، فلم يوظِّف القصة القرآنية لحزنه وبكائه فحسب، بل اقتبس النص القرآني المناغم لما هو عليه، خاصة أنَّ الإمام زين العابدين ونبي الله يعقوب كانا ضحية الصراع الدائر بين البراءة والانحراف أو الفضيلة والرذيلة، وكانا أبرز مكتوٍ بنار ذلك الصراع لأنّهما تحّملا أعباء حزن طويل على رمزي الخير اللذين سيقا إلى مذبح الطاعة، على اختلاف بين نهاية يوسف عليه السلام السعيدة ونهاية الحسين عليه السلام الدامية.

الصورة الثالثة

قصة أصحاب الأخدود

﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[٤٨].

تفتتح سورة البروج المباركة آياتها الشريفة بقسم قرآني متكرر يعطي دلالة الاهتمام بالموضوع المقصود، فتبتدئ السورة سياقها النصي بسلسلة من المقسمات دون الولوج في الغرض الأساسي لتجعل هذا القسم الرباعي المكرر النافذة التي يُطل بها على الغرض الأساس، كي يعيش القارئ والسامع حالة الترقب السياقي إزاء جواب القسم الذي سيُفتح له بدافع تشويقي طالما ألفناه في التراكيب القرآنية، كي يكون القسم موطئاً للمطلب المقصود، ليكشف السياق في النص الكريم عن كون صدر النص- وبالتحديد في الآيات الثلاث الأول- هو المقسم به، أي هو فعل القسم المقدَّر المدلول عليه- سياقياً- من خلال واو القسم والجر، فيقسم القرآن الكريم بمجموعة من المخلوقات المتباينة من حيث الشكل فهو يقسم-تارةً- بالسماء ذات الكواكب أو ذات النجوم المتلألئة، أو ذات المنازل الفلكية -تشبيهاً لها بالقصور- وهو المدلول اللغوي لمعنى البروج، ويقسم –تارةً أخرى- باليوم الموعود الذي هو يوم القيامة، ويقسم

بالشاهد والمشهود الذي ذهب فيه المفسرون مذاهب شتى حتى ذكروا أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة[٤٩].

ومهما يكن من أمر فسياق النص أعني سياق القسم –تحديداً-جاء على شكل نسق بلاغي بديعي سماه الباقلاني(ت٤٠٣هـ) بالموازنة [٥٠]، إذ يتساوى عنده الوزن في الفاصلتين دون القافية، فقد اتسق نسق الآيات الثلاث في صدر السورة من حيث الوزن، من دون مراعاة لتساوي الفاصلة القرآنية التي تسمى –شعراً- بالقافية، فتختلف فاصلة الآية الأولى عن فاصلة الآيتين اللاحقتين كما يتضح في الآيات ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فمع دور القلقلة الصوتية –كما يسميها علماء التلاوة-لصوتي الجيم والدال والمشابهة الصوتية لهما من حيث الشدة والجهر فهما يختلفان في طبيعة المستوى اللفظي والدلالي.

تنتقل الآيات الشريفة بعد ذلك إلى الغرض الأساس الذي سيق القسم من أجله أي تشرع في مقاصد النص الحقيقية بعدما تنتهي من التوطئة له بالقسم، كي تضع القارئ والسامع وجهاً لوجه إزاء الموضوع الرئيس وذلك في قوله تعالى:﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الذي هو جواب القسم أو العلّة التي جيء بالقسم من أجلها.

وهنا أودُّ الوقوف على بعض الدلالات التي تفضي إليها الآيات الشريفة بما تحمله من الشحن الرثائي العاطفي لتوظيفها بعد ذلك في الرثاء الحسيني، وهذه الدلالات هي:

١- جواب القسم جاء فعلاً ماضياً دالاً على الدعاء أي هو جملة خبرية وردت في سياق إنشائي[٥١]، لأن الآية تضمنت دعاءً بالقتل على أصحاب الأخدود، فكأن السياق يقول: اقتلْ أصحاب الأخدود، فهو خروج دلالي عن مقتضى السياق القرآني وذلك بتوظيف الجملة الخبرية –الذي هو الفعل الماضي- لتدل على معنى الدعاء الإنشائي، كما ورد ذلك في قوله تعالى:﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾[٥٢]، وقوله تعالى:﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾[٥٣].

إذ يستفاد من دلالة الدعاء عليهم أن أصحاب الأخدود هم المحرِقون لا المحرَقون، كما يستفاد - أيضاً - أن فوراناً حصل في الغضب الإلهي حتى صار يدعو عليهم بالقتل، مما يعطي تصوراً واضحاً عن بشاعة ما جرى في ساحة الأخدود المأساوية بحق أناس مؤمنين عزّل، وكيف وقفت السماء متعاطفة معهم حين نقلت صورة قتلهم إلى الأجيال كي تُقرأ آناء الليل وأطراف النهار.

وهذا الأسلوب القرآني -المتعلق بتغيير دلالة الخبر إلى الإنشاء للدعاء على الظالمين- كان له حضور واضح في كلمات الحسين عليه السلام في بعض مواقف عاشورائه الدموية، منها حينما وقف على جسد ولده علي الأكبر ووجده دامياً ومعفراً بالتراب ومقطّع الأعضاء، قال عليه السلام حينها:قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول، وانهملت عيناه بالدموع ثم قال:على الدنيا بعدك العفاء[٥٤]، وهو ما يعطي المعنى نفسه الذي دلت عليه الآية الشريفة في حجم الألم والرزية والمصيبة التي انطوى عليها قلب الحسين عليه السلام الرحيم حتى صار يدعو عليهم بالقتل، كيف لا وهو يرثي ويبكي أشبه الناس خَلقاً وخُلُقاً ومنطقا بالنبي الأكرم .

٢- صُدِّرت جملة جواب القسم بفعل ماض مبني للمجهول صيّرت فيه المفعول به نائباً عن الفاعل الذي هو قاتل القتلة، فتركت السياق هو الذي يختار الفاعل

الذي يريد معتمداً على القرائن السياقية المفضية إليه، ومع هذا يمكن توظيف دعاء الإمام الحسين عليه السلام المذكور بوصفه قرينة خارجية على الفاعل المحذوف حين نسب القتل إلى الله تعالى، في قوله عليه السلام: قتل الله قوماً قتلوك، وما أقساه من قتل حين يكون الخالق هو القاتل نفسه، فكأن الآية قالت: قتل الله أصحاب الأخدود.

٣- جواب القسم جاء خالياً من فاء الجزاء الدالة عليه، فيمكن التعرف على جواب القسم بقرينة السياق الكاشفة عن اهتمام النص القرآني بالحدث المسوق، ولذا يرى الزركشي أنَّ حذفاً وقع هنا هو فاء الجزاء ولام القسم، فكأن النص أراد أن يقول: لقد قُتل أصحاب الأخدود[٥٥].

٤- تأتي الظاهرة الصوتية في هذا النص القرآني لتسجل وجوداً خاصاً وحضوراً متميزاً يتزاوج كثيراً مع الحدث المأساوي للقصة، تتجلى هذه الظاهرة بصوت الدال المجهور الشديد الذي يحبس عنده المجرى الصوتي حال النطق به فلا يجري فيه الهواء، ولذلك يعد صوت الدال من حروف القلقلة في الدراسات القرآنية، والقلقلة هي حبس الصوت ثم إطلاقه[٥٦]، ويتميز هذا الوضوح الصوتي لظاهرة القلقلة في الصوت عند الوقوف عليه، وهذا ما أفاد منه النص القرآني لهذه الصورة الأليمة حين جاءت فواصلها القرآنية منتهية بحرف الدال الشديد كي تتناغم شدته مع بشاعة الصورة التي أراد النص أن يرسمها للسامع والقارئ، وذلك في كل من الكلمات الآتية:الأخدود، الوقود، قعود، شهود، مستفيداً من بلاغة المد الصوتية التي يولدها صوت المد السابق لصوت الدال وهو الواو لكي تكتمل لوحة التهويل المأساوي.

٥- مفردة (النار) –هنا- وقعت بدل اشتمال من الأخدود، ولذا جيء بها مجرورة بتبعية جرِّ المبدل منه في السياق، وبدل اشتمال يعني أنَّ النار ليست هي كل ما في الأخدود، فالأخدود قد تضمّن الوقود الذي هو موصوف النار، وهذا الوصف المخيف يعطي فهماً واضحاً عن كمية الوقود أو الحطب الذي كان يحتويه الأخدود، ولذلك ليس من شأن النار أن توصف بأنها ذات وقود، بل توصف بأنها ذات حرارة أو ذات إحراق، أما وصفها بأنها ذات وقود فهو دال على عظمة الإيقاد المعد لهذه النار إلى درجة أن صار الوقود موصوفاً لهذه النار، وقد يعطي مدلولاً آخر هو أنَّ الوقود المسبب للاشتعال ليس الحطب وحده، وإنَّما هي الأجساد التي ألقيت في النار لأن الأعداد كانت كبيرة جداً تصل إلى اثني عشر ألفاً وقيل سبعون ألفاً من المؤمنين[٥٧]، فتكون هذه الأجساد سبباً آخر يضاف إلى الحطب يسهم في ضخامة النار المشتعلة، بدليل أن القرآن الكريم أشار في سياق قرآني آخر أن الناس تكون لوقود جهنم في قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [٥٨].

٦- لما كان الفعل المضارع من الأفعال الدالة على زمني الحال والاستقبال فهو كذلك في هذا السياق القرآني، فقد استعمل الفعل(يفعلون) في النص ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ليدل على الزمنين، ومن هنا يمكن القول أنَّ حدث إحراق المؤمنين بالأخدود لم يقع مرة واحدة بل تكرَّر منهم مراراً للدلالة السياقية التي جاء بها الفعل المضارع (يفعلون)، خاصة أن الفعل بما هو فعل يدل على الحدوث والتجدد وهاتان الدلالتان مما تنسجم مع زمني الحال والاستقبال.

٧- (إذ) هو الظرف الزمني الذي حدث فيه قعود أصحاب الأخدود لمشاهدة عملية الإحراق، لذلك هو معمول ظرفي للفعل(قُتل).

فالقصة-إذاً- تتحدث عن مجموعة من المؤمنين ثبتوا على دينهم ولم يرضخوا لإرادة ملوكهم فكان عقابهم أنْ حُفر لهم شق كبير بطول أربعين ذراعاً وبعرض

اثني عشر ذراعاً[٥٩]، وتم ملؤه بالحطب ومن ثم أشعلوا النار فيه ثم جيء بالمؤمنين فأجلسوهم على مقربة من الأخدود ترهيباً لهم ولكي يتخلوا عن عقيدتهم، ولذا كان نصيب الثابتين على عقيدتهم الإلقاء في الأخدود لكي تلتهمه النار فيكون وقوداً لها.

ويبدو من سياق الآيات الشريفة وبعد الإمعان في قراءتها قراءة متأنية يستبطن السياق النصي ويذكر لنا أطرافاً ثلاثة اشتمل عليه هذا الحدث التاريخي البشع، وهذه الأطراف هم:

١- أصحاب الأخدود: وهو الطرف المشرف على أحداث الإحراق، وهم الذين قعدوا للمشاهدة والمعاينة والإشراف على أحداث حرق المؤمنين، ولما كان هؤلاء هم المشرفين على حيثيات الجريمة، فقد نزّلتهم الآية الشريفة تنزيل الفاعل حين قالت:﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾، وأن توصيفهم بأصحاب الأخدود من خلال جعل الأخدود مضافاً إليهم يصور بشاعتهم إذ يعطي هذا الوصف بشاعة القتل الذي مورس بحق المؤمنين، والحال أنهم لم يباشروا حدث الإحراق بأنفسهم ولم يحتطبوا للنار بأيديهم، ولم يكونوا سوى مشاهدين لعملية الإحراق، ومع ذلك فقد أدينوا نتيجة ذلك، شأنهم في ذلك شأن قوم نبي الله صالح ﷺ في حادثة عقر الناقة، فمع أن عاقر الناقة كان واحداً ولكن العذاب الإلهي طال الجميع، بعد أن نسب الله تعالى عقر الناقة للمجموع لا للفاعل فقط، لأنهم رضوا بفعل العاقر كما يصوره القرآن الكريم بقوله:

﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾[٦٠]، فالغضب السماوي لا يستثني أحداً لأن الشهود في حدث الجريمة لا يخرج الشاهد عن كونه ظالماً في نواميس الشريعة الإلهية لأن الراضي بفعل الظالم ظالم، والدليل على ذلك أنَّ هؤلاء الظلمة صاروا ظلمة لأنهم كانوا شهوداً على فعل الظلمة، ولذا لم يرض الحسين ﷺ لأحد أن يسمع واعيته ولم ينصره مخافة أن يطاله الغضب الإلهي إنْ كان ميالاً إلى الراحة والدعة، ولذا قال -مخاطباً رجلاً أبى نصرته-:فوالذي نفس حسين بيده لا يشهد قتلنا اليوم رجل إلا دخل جهنم[٦١]، مما يتناسب تماماً مع نص الآية الشريفة ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾، ولذلك ورد في الزيارة (لعن الله أمة قتلتك ولعن الله أمة ظلمتك ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به)، إشارة إلى وحدة الهدف والمضمون في هذه الأصناف الثلاثة.

٢-الطرف الثاني هم الفاعلون والمباشرون لعمل الإحراق والذين عبَّرت عنهم الآية:﴿ يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾، فالواو هو الضمير المتصل الذي يقع في محل رفع فاعل، ليدل على هذا الطرف والذي يتضمنه الفعل المضارع (يفعلون)، أي هم المنفذ المباشر وهم ظالمون كذلك لأنهم يقتلون المؤمنين بالحرق ولا مناص من شمولهم بالعذاب الإلهي ما دامت الجريمة تتعلق بدماء المؤمنين.

٣- الطرف الثالث هم المؤمنون الذين وقع عليهم الحيف والقتل لا لشيء سوى أنهم كانوا يؤمنون بالله والذين عبرت عنهم الآية الشريفة بقولها:﴿ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾، لتعطي معنى البراءة للصفوة المؤمنة، كما أنها تجسد فوران الشفقة الإلهية على حرمة دماء المؤمنين[٦٢]

فهي كما يبدو لوحة وصورة فنية متكاملة الأبعاد بكل تفاصيلها تنقل السامع والقارئ إلى هذا المشهد المريب الحزين، بعدما وضحت فيه مسرح الجريمة الذي هو الأخدود المستعر بنار ذات وقود لا ذات لهب، حتى يُتعرف على بشاعة الصورة المؤثرة للمشهد الإحراقي حين يبين النص القرآني أن الطرف المشاهد جاء يتفرج

على ما يجري على المؤمنين الأبرياء، وكأنه حاضر في حدث ترفيهي تستطيبه النفوس وتستسيغه العقول، وليس مشهداً دموياً يقتل فيه الآلاف من أناسٍ أبرياء بلا جريرة لهم سوى الإيمان بالله تعالى العزيز، وهذا أيضاً تصعيد لعنصر الرثاء والحزن والعاطفة حين تسمع بأناس يتفرجون على آخرين يحترقون في النار، لكي يعطي للسامع المسوغ الشرعي والعقلي للحنق على الظالمين ولعنهم والتنديد بفعلهم لأن مأساوية القصة بهذا الرسم القرآني المثير لم ترد التركيز على مظلومية المظلوم فحسب، بل أرادت أن تصور بشاعة الظالمين حتى يشجبوا ويلعنوا على فعلهم هذا ولا ضير من لعنهم ما دام القرآن الكريم صار يدعو عليهم بالقتل مما يعطينا دليلاً على أنَّ التنديد بالظالمين مقدم على ذكر مظلومية المظلوم ولهذا قدم النص القرآني في صورة الأخدود الدعاء لقتل الظالمين على ذكر ما جرى على المؤمنين، ولا شكَّ أنَّ هذا التقديم لم يكن عفو الخاطر، فحدث الأخدود بكل ما يحمل في جنباته من صورة أليمة سيقت بهذا التنوع الرثائي الحزين هو عبارة عن عاشوراء مصغرة[٦٣]، تستثير في السامع والقارئ مكامن الحزن والبكاء على طول الوجود القرآني كي يكون وجودها دافعاً لنا للبكاء على مصيبة الحسين ورثائه لأنها تحمل من معاني البشاعة والقسوة على الحسين وأهل بيته ما يعجز العقل عن إدراكها حتى أن الراوي يقول في وصف قتلة الحسين:حتى كأن الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرحمة شيئاً[٦٤].

الخاتمة

في ضوء الدراسة والتحليل في قصص الرثاء القرآني يمكن التوصل إلى النتائج الآتية:

١- يعتمد السياق القرآني على النص القرآني المسموع لا المقروء، ولذا جاء النص الخطابي في قصة هابيل وقابيل بقوله:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾، فيكون هذا بمثابة المسّوغ الشرعي والعقلي التوظيفي للتأكيد على تلاوة المصيبة الحسينية على مدى الدهور.

٢- استثمار تولّي يعقوب عليه السلام عن أولاده نتيجة إقدامهم على ما فعلوه بأخيهم الأصغر في هجر ونبذ أفعال الظالمين كقتلة الحسين مهما كانت منزلتهم ما داموا ظالمين.

٣- توظيف بكاء يعقوب عليه السلام على ولده يوسف عليه السلام في إطار الشحن العاطفي للمأساة الحسينية من خلال الاعتماد على الأصول القرآنية.

٤- توظيف طول فترة بكاء يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام لإطالة أمد البكاء والندبة على الحسين عليه السلام.

٥- الجو الرثائي في النص القصة القرآنية يمثل وازعاً للآخرين كي يخلقوا أجواء رثائية مماثلة في العزاء الحسيني.

الهوامش

١. ما أعنيه بالرثاء في طيات هذا البحث هو الرثاء بمعناه الواسع المتوفر على كل دواعي الحزن والشجن ولا أعني به الشعر الرثائي فحسب.

٢. أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية/السيد محمد باقر الصدر:٣٤٥.

٣. سورة المائدة:٢٧-٢٩.

٤. لسان العرب/ابن منظور:١: ٦٦٤(قرب).

٥. ينظر:الحداثة العولمة الإرهاب في ميزان النهضة الحسينية/الشيخ محمد السند:١١٢.

٦. ينظر:المصدر نفسه:١١٢.

٧. العين:٨: ١٣٤(تلو).

٨. القاموس المحيط:١١٦٤(تلو).

٩. ينظر:دروس في علم الأصول/السيد محمد باقر الصدر:١: ٢٥٦.

١٠. الكشّاف:٢: ٢٢٤.

١١. الخصائص:٢: ١٥٧.

١٢. ينظر:البلاغة الصوتية في القرآن الكريم/د.محمد إبراهيم شادي:٢٨.

١٣. ينظر:الكتاب:٤: ٤٣٤.

١٤. ينظر: المصدر نفسه:٤: ٤٣٣.

١٥. ينظر:دراسة الصوت اللغوي/د.أحمد مختار عمر:٣٢٢، والدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني/د. حسام سعيد النعيمي:٣٠٥.

١٦. ينظر:الكتاب:٤: ٤٣٤.

١٧. ينظر:الكشاف:٢: ٢٥٢.

١٨. الكشاف:٢: ٢٢٦.

١٩. ينظر:الجمل في النحو/أحمد بن الحسن بن شقير النحوي البغدادي:٢٢٨.

٢٠. ينظر:من أسرار النظم القرآني/د.محمد عبد الله سعادة:٢٦.

٢١. ينظر: المصدر نفسه:٢٦.

٢٢. ينظر:المقتضب/المبرد:٤: ١٤٩،وشرح المفصل/ابن يعيش:٤: ٩٩.

٢٣. ينظر:من طرق القرآن الكريم(بحث)/د.تمّام حسّان،مجلة مجمع اللغة العربية،القاهرة،ج٤٩، سنة١٩٨٢،ص١٧٦.

٢٤. سورة الدخان:٢٥.

٢٥. ينظر:جامع البيان عن تأويل آي القرآن:٢٥: ١٦٠.

٢٦. ينظر:تاريخ مدينة دمشق:١٤: ٢٢٥، ٢٢٩.

٢٧. ينظر:المصدر نفسه:١٤: ٢٢٦.

٢٨. ينظر:الحداثة العولمة الإرهاب في ميزان النهضة الحسينية:١٢٢.

٢٩. ينظر: ينابيع المودة لذوي القربى/ القندوزي:٣ : ٨٠.
٣٠. ينظر:بحار الأنوار/العلامة المجلسي:٤٥: ٥.
٣١. سورة يوسف:١١١.
٣٢. سورة يوسف:٨٤- ٨٦.
٣٣. مفردات الراغب الأصفهاني:٧٧٥(ولي).
٣٤. ينظر:البرهان في علوم القرآن:٣: ٤٥١ -٤٥٢.
٣٥. ينظر:لسان العرب:٩: ٥(أسف).
٣٦. ينظر:إعجاز القرآن/ الباقلاني:١٢٧.
٣٧. المقتضب:٤: ٢٥٢.
٣٨. ينظر:مفاتيح الغيب/الفخر الرازي:١٨: ١٩٦-١٩٧.
٣٩. ينظر:روح المعاني/الآلوسي:١٣: ٤١.
٤٠. ينظر:شرح الرضي على الكافية:٤: ١٩٦.
٤١. ينظر:الكتاب:٤: ٤٣٣.
٤٢. ينظر:البلاغة الصوتية في القرآن الكريم:٣٥.
٤٣. جواهر البلاغة/أحمد الهاشمي:٣٦٨.
٤٤. سورة الشورى:٢٣.
٤٥. ينظر:التحريف في السيرة الحسينية(بحث)/الشيخ محمد صحتي السردوردي:٣٣٧-٣٣٨.
٤٦. بحار الأنوار/العلامة المجلسي:٤٥: ١٤٩.
٤٧. الأمالي/ الشيخ الصدوق:٢٠٤.
٤٨. سورة البروج:١-٨.
٤٩. ينظر:الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان/القرطبي:٢٢: ١٨٠ .
٥٠. ينظر:إعجاز القرآن:١٣٤.
٥١. ينظر:الكشّاف:٦: ٣٤٧.
٥٢. سورة الذاريات:١٠ .
٥٣. سورة عبس:١٧ .
٥٤. ينظر:الإرشاد/الشيخ المفيد:٢: ١٠٦ .
٥٥. ينظر:البرهان في علوم القرآن:٣: ٤٥ .
٥٦. ينظر:الدراسات الصوتية عند علماء التجويد/د.غانم قدّوري الحمد:٢٧٥ .
٥٧. ينظر:مفاتيح الغيب:٣١: ١١٨ .
٥٨. سورة التحريم:٦ .
٥٩. ينظر:مفاتيح الغيب:٣١: ١١٨ .

٦٠. سورة الشمس:١٢-١٤.
٦١. تاريخ مدينة دمشق:١٤: ٢٢٢.
٦٢. ينظر:الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد:/الشيخ محمد السند١: ٤٠٦.
٦٣. ينظر:الحداثة العولمة الإرهاب في ميزان النهضة الحسينية:١١٣.
٦٤. ينظر:بحار الأنوار:٤٥: ٥٧.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية، السيد محمد باقر الصدر(ت١٤٠٠هـ)، ط١، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر،قم- إيران،١٤٢٥ه،

٢- الإرشاد في معرفة الحجج على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي(المفيد) (ت٤١٣هـ)، تحـ:مؤسسة أهل البيت (ع) لتحقيق التراث، ط٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان،١٤١٤ه-١٩٩٣م.

٣-إعجاز القرآن،أبوبكر الباقلاني(ت٤٠٣ه)،تح:أحمد صقر،(د.ط)، دار المعارف، مصر،(د.ت).

٤- الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسين بن بابويه القمي(الصدوق)(ت٣٨١هـ)،تحـ:قسم الدراسات الإسلامية، ط١، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة،قم-إيران، ١٤١٧ه.

٥- بحار الأنوار لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ)،تحـ:الشيخ عبد الزهراء العلوي،(د.ط)،دار الرضا، بيروت-لبنان،١٤٠٣ه-١٩٨٣م.

٦- البرهان في علوم القرآن،بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(ت٧٩٤هـ)،(د.ط)،تحـ:محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة،(د.ت).

٧- البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، الدكتور محمد إبراهيم شادي، ط١، الرسالة، القاهرة، ١٤٠٩ه-١٩٨٨م.

٨- تاريخ مدينة دمشق، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي(ابن عساكر)(ت٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق:علي شيري،(د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان، ١٤١٥ه-١٩٩٥م.

٩- التحريف في السيرة الحسينية،الشيخ محمد صحتي السردوردي، بحث منشور ضمن كتاب جدل ومواقف في الشعائر الحسينية، إعداد حيدر حب الله، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان،١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

١٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه:محمود محمد شاكر، راجع أحاديثه:أحمد محمد شاكر،ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة،(د.ت).

١١- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي(ت٦٧١هـ)، تحـ:الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، شارك في التحقيق محمد رضوان عرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م.

١٢- الجمل في النحو لأبي بكر أحمد بن الحسن بن شقير النحوي البغدادي المتوفى ٣١٧ه، تحقيقاً ودراسةً، علي بن سلطان بن علي الحكمي،(رسالة ماجستير)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز،(د.ت).

١٣-جواهر البلاغة،السيد أحمد الهاشمي(ت١٣٦٢ه)، علّق عليه ودقّقه سليمان الصالح، ط٤، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.

١٤- الحداثة العولمة الإرهاب في ميزان النهضة الحسينية، محاضرات الشيخ محمد السند، الشيخ علي الأسدي، ط٢، مطبعة وفا، نشر الباقيات، قم-إيران، ١٤٣٢ه-٢٠١١م.
١٥- خزانة الأدب، البغدادي(١٠٩٣هـ)، تحـ:محمد محمد نبيل طريفي،أميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٩٨٨م.
١٦- الخصائص، عثمان بن جني (ت٣٩٢ هـ)، تحـ : محمد علي النجار، (د.ط)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
١٧-الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الدكتور غانم قدّوري الحمد، ط٢، عمّان-الأردن، ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م.
١٨- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، الدكتور حسام سعيد النعيمي،(د.ط)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.
١٩- دراسة الصوت اللغوي، الدكتور أحمد مختار عمر،(د.ط)، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨ه-١٩٩٧م.
٢٠- دروس في علم الأصول،السيد محمد باقر الصدر(ت١٤٠٠هـ)، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، السيد محمود الآلوسي البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان،(د.ت).
٢٢-شرح كافية ابن الحاجب،محمد بن أحمد الاستراباذي (ت٦٨٦هـ)،تصحيح وتعليق:يوسف حسن عمر، ط١، مؤسسة الصادق ،طهران،١٣٩٨ه-١٩٧٨م.
٢٣- شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت٦٤٣هـ)، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،١٤٢٢ه-٢٠٠١م.
٢٤- الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد، محاضرات الشيخ محمد السند، رياض الموسوي، ط١، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤٣٢ه-٢٠١١م.
٢٥- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحـ: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي،ط٢،مؤسسة دار الهجرة،إيران،١٤٠٩ هـ.
٢٦- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي(ت٨١٧هـ)، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان،١٤٢٤ه-٢٠٠٣م.
٢٧- كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحـ:عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٨- الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت٥٣٨هـ)، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض ،ط١، مكتبة العبيكان،الرياض-السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٢٩- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١ هـ)، (د.ط)، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.

٣٠- مفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر(ت٦٠٤هـ)، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤١٠ه-١٩٨١م.
٣١- مفردات الراغب الأصفهاني مع ملاحظات العاملي،أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني(ت٥٠٢هـ)،(د.ط)، دار المعروف للطباعة والشر،بيروت-لبنان،(د.ت).
٣٢- المقتضب، محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحـ:محمد عبد الخالق عظيمة،(د.ط)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
٣٣- من أسرار النظم القرآني آيات وعبر، الدكتور محمد عبد الله سعادة،(د.ط)، مكتبة مبارك العامة، مصر،(د.ت).
٣٤- من طرق القرآن الكريم(بحث)/د.تمّام حسّان،مجلة مجمع اللغة العربية،القاهرة،ج٤٩، سنة١٩٨٢.
٣٥- ينابيع المودة لذوي القربى، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي(ت١٢٢٠هـ)، تحـ:سيد علي جمال أشرف الحسيني،ط١، دار الأسوة للطباعة والنشر،١٤١٦هـ.